

المجتمع الإسلامي في أصله

قام المجتمع الإسلامي على أساس :

من دعوة الاسلام الى « المساواة » في الاعتبار البشري ،

وأن الذى يحقق هذه المساواة هو « الحرية » التى يجب أن تتوفر للعقل فى تفكير الانسان ، وفى اعتقاده وفى تصرفه وسلوكه .

فقد نادى بالمساواة فى هذا الاعتبار فى جملة من آيات الكتاب المبين ، على نحو ما جاء فى قول الله تعالى :

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... » (١)

... فأصل القرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الانسانية (الناس) على مبدأ : أن الكثرة التى خلقت من البشر مردها جميعها فى الخلق الى : « نفس واحدة » ، ومرد كثرتها الى المراجعة بين الذكر والأنثى ، اللذين هما من نفس واحدة أيضا .

وإذا رد جميع أفراد البشرية الى نفس واحدة فى التكوين ، غيهم حتما متساوون فى خصائص الانسانية ، لا يتميز بعضهم عن بعض ، نقصا أو زيادة فى هذه الخصائص . إذ الطبيعة واحدة ، واعدادها على نحو متساوى .

(١) النساء : ١ .

... وما جد في حياة الناس بعد ذلك من :

غنى وفقر ،

وضعف أو قوة في عصبية الأسرة ،

ومباشرة أو غير مباشرة في ترجيح الأمر ،

... لا يغير من المساواة في القيمة البشرية لجميع الأفراد .

... واختلاف الناس في ميولهم واتجاهاتهم ،

هذا الى القوة والحرب ،

وذلك الى الدعة والسلام ،

وهذا الى التطلع الى السيطرة وذلك الى الطاعة والخضوع .

وهذا الى العمل اليدوى وذلك الى العمل العقلى .

وهذا الى جمع المال وكثره وذلك الى انفاقه أو تبذيره .

وهذا الى الكثرة في النسل وذلك الى القلة فيه .

وهذا الى الظهور والخيلاء وذلك الى التواضع أو العزلة .

... اختلاف الناس في ميولهم واتجاهاتهم هذه وأمثالها أمر طارئ

على مقومات الطبيعة البشرية ، وتجانسها فيها ، وهو عرض وليس
بأصيل فيها ، حتى يمكن أن تتنوع هذه الطبيعة الى أنواع مختلفة .

نعم في داخل مقومات الطبيعة البشرية وخصائصها قد يتميز فرد
عن فرد في قوة الميل أو ضعفه نحو هذا أو ذاك ، ولكن أصول الميول
قائمة . ومن ثم فالاعتبار البشرى لكل الأفراد واحد :

هم من نوع واحد ، مهما كانت الفروق الفردية داخل الاطوار العام
للطبيعة البشرية .

وعلى أساس من الفروق الفردية قد يتم التمايز بين الأفراد كأفراد ،
ولكن لا يدعو هذا التمايز الى قيام الطبيعة ، وتنسجم النوع الانساني

الى طبقات ، يفضل بعضها بعضا في القيمة الانسانية ، ويبرر تفاضلها
استغلال الأعلى منها للأدنى ، على نحو ما هو معروف في تاريخ
المجتمع الأوروبي .

يقول الله تعالى :

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

... فبعد أن يقرر القرآن الكريم هنا : المساواة في الطبيعة البشرية
بين الناس جميعا بخلقهم من ذكر وأنثى ، لا يرى : أن اختلافهم الى شعوب
وقبائل يعود الى أساس التفاضل بينهم ولا يؤدي اليه أيضا ، ومن
ثم يتيح الفرصة لاستعلاء بعضهم على بعض .

وانما اختلافهم في ذلك مدعاة للالتقاء والتعارف فيما بينهم . اذ قد
يكون بعضهم ثريا ، أو قويا ، أو كثير العصبية ، والبعض الآخر فقيرا ،
أو ضعيفا ، أو قليل العصبية في الرجال ، فتكون هنا حاجة لتعاون الثرى
والضعيف ، أو قليل العصبية ، مع القوى في عصبية والفقير في ماله .

فالأمة الضعيفة في خبرتها والفنية في مواردها الطبيعية في حاجة الى
أمة أخرى قد تكون فقيرة في هذه الموارد ، لكنها قوية في الخبرات
والكشف عن مصادر الثروة .

... ثم كذلك بعد هذا كله يرى القرآن الكريم هنا أيضا : أن
المساواة في الطبيعة البشرية وفي الاعتبار البشري والقيمة الانسانية
— ولذا ينبغي أن لا يسخر أحد من أحد : « ياأيها الذين آمنوا لا يسخر
قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا
منهن » (٢) — لا تحول دون التمايز بين الأفراد ، تبعا لما بينهم من مفارقات
في الميول الطبيعية في قوتها وضعفها . وهنا تقول هذه الآية الكريمة :

« ... ان أكرمكم عند الله أتقاكم » اي أن فضل بعضكم على بعض

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) الحجرات : ١١ .

«لا يعود الى قبلية ، ولا الى شعوبية ، ولا الى طبقية ، مما يتخذها مجتمع الجاهلية اساسا للمفاضلة ، والتفرقة والتمييز بين الناس . وانما يعود الى السلوك الكريم المذهب الذى ينطوى على احسان للنفس وللغير معا ، فضلا عن انه يجنب الضرر والايذاء للنفس او للغير كذلك .

وهذا السلوك الكريم هو ما يؤول اليه معنى « التقوى » التى جعلتها الآية هنا نقطة المفاضلة بين الأفراد .

ومثل هذا السلوك يكون فرديا ، وليس طبقيًا . لأنه يتصور : ان يقع من أى فرد من أفراد الانسان ، بغض النظر عن المجموعة التى يكون فيها حسبها تصنفه تقاليد المجتمعات ، أو بغض النظر عما بقى من رواسيها فى تقييم الناس ومجموعاتهم .

وقد ينشأ عن هذا التمييز وصف للمتميزين يعرفون به دون من عداهم ، ومع ذلك لا يكونون طبقة بالمعنى المفهوم للطبقة ، كالوصف بالمؤمنين . فى مقابل : الكافرين ، والفاسقين ، والمنافقين .

والاسلام قبل أن يدعو الى « المساواة » وابعاد روح الطبقية فى مجتمع الدعوة الاسلامية دعا الى « الحرية الفردية » عن طريق الايمان بالله أولا ، على أن هذا الايمان أمر يخص الطبيعة الانسانية وحدها ، بجانب ما عرف لهذه الطبيعة من خصائص شائعة قبل الاسلام عن الاغريق من : العقل ، والفرائز التى يشاركه فيها الحيوان .

وبذلك تختلف نظرة الاسلام الى خصائص طبيعة الانسان عن تلك النظرة التى عرفت للاغريق ، وتكون على اساس منها : المجتمع الاغريقى ، فالمجتمع الاوروبى ... الى الوقت المعاصر ، واختلاف النظرتين بعضهما عن بعض أمر عميق الجذور والأثر معا فى بناء المجتمع الانسانى وفى بقاء تماسكه .

فاذا كانت الفلسفة الاغريقية التى قام على أساسها المجتمع الاوروبى حتى الآن ترى : أن خاصية الانسان فى : العقل ، أو فيما يسمى : الإدراك ... فإن الاسلام يرى بجانب الإدراك خاصية أخرى للانسان ، وهى خاصة الايمان بالله .

والسمع والبصر ان كانا الطريق الرئيسى الى الادراك الحسى فالعقل فى الانسان .. فالقلب فى الانسان هو الطريق الاول والآخر للايمان بالله لديه .

وجعل القلب مكان الايمان بالله ، لا باعتبار انه المركز الرئيسى للدورة الدموية ، فذلك امر يتعلق بالوظيفة الطبيعية الحيوانية له ، ولكن باعتبار : انه يمثل العمق فى نفس الانسان ، فليس هو على سطح بدن الانسان ، كما هو شأن العين مركز الابصار ، والأذن مركز السمع . وهذا يعطى امرين :

اولا : ان الايمان بالله اذا استقر فى القلب أى فى أعماق النفس قلما ينسى ، أو قلما تنال منه أحداث الزمن .

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » (١) .

... فالآية الكريمة تشير الى أن سبب الموقف القوى الذى يقفه المؤمنون من أعداء الله ورسوله — وهو ذلك الموقف الذى لا تهزه العواطف وعلاقة الدم والقرباة — يعود الى أن الايمان قد نقش واستقر فى قلوبهم .

نعم .. تأييد الله لهم فى هذا الموقف له دخل فى قوته ، ولكن التأييد من جانب الله هو مظهر آخر من مظاهر الايمان . فلولا الايمان لما كان التأييد للمؤمنين بعد ذلك .

... بخلاف ما يأتى به البصر ، أو السمع . فانه عرضة للنسيان ، أو الاختلاط بغيره من المدركات الأخرى .

ثانيا : من أجل ذلك : ان القيمة الذاتية للايمان بالله فى حياة الانسان أكثر ايجابية ، مما يوصله البصر ، أو السمع ، للادراك الداخلى .

فمن حيث اضافة القلب في نظرة الاسلام كخاصة يتميز بها الانسان عن الحيوان بجانب الادراك ، يقول القرآن الكريم :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (١) .

... فانتظار الشكر من الانسان في هذه الآية على خلق السمع ، والبصر له ، والفؤاد فيه ، لا باعتبار أنها أجهزة طبيعية تؤدي دورها الطبيعي العادي للانسان كما تؤدي ذات الدور للحيوان . ولكن باعتبار : أنها مصادر علم ، وتوجيه ، وهداية له .

وبذلك تمثل خواصه التي أنعم الله بها على الانسان ، وميزه بها على غيره ، مما يشاركه في الحركة ودفع الغريزة ، وهو الحيوان .
وبذلك أيضا يظهر التقابل في الآية بين شقها الاول وهو :

١ — **« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا »** ... فنقضى أن يكون للانسان علم مسبق قبل ولادته .
... وشقها الثاني ، وهو :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ...
فأبرز هنا استعداد الانسان الآن لتحصيل العلم ، والهداية بما أعد به . وهو ما يجب أن يشكر الله عليه .

والانسان في نظر الاسلام اذن ليس بالادراك — الحسي والعقلي — وحده . وإنما هو انسان بادراكه الذي وسيلته الرئيسية السمع والبصر ، ثم بآيانه كذلك الذي طريقه القلب أو الفؤاد .

والادراك ، والقلب — بناء على ذلك — يتحمل الانسان مسؤوليتهما في توجيههما الوجهة السليمة . وهي مسؤولية كون الانسان انسانا في : توجيهه ، وفي سلوكه ، وفي مواقفه وحلوله لمشاكل الحياة :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد
كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) •

(١) الاسراء : ٣٦ •

فالقرآن الكريم يطلب من الانسان هنا كهدى عام — بعد ان حدد له
منهج الاعتقاد والسلوك نحو الآخرين معه في مجتمعه — ان يكون سمعه وبصره
وقلبه وسائل علم ، وليست وسائل ظن ، على معنى ان يجنبها تتبع مالم
يعرفه ومالم يحزم به • وبذلك يبقى بعيدا عن ان يسيء لنفسه او لغيره •

أما المنهج المشار اليه فقد ذكره :

١ — وفي جانب الاعتقاد في قوله :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ... »

٢ — وفي جانب السلوك نحو الوالدين في قوله :

« ... وبأوالدين احسانا ، اما يفلن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما

فلا نقل لهما آف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من
أرحمة وقل رب أرحمهما كما ربياني صغيرا » •

٣ — وفي جانب السلوك نحو الأقارب وأصحاب الحاجة في قوله :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ... » •

٤ — وفي جانب السلوك في انفاق المال في قوله :

« ... ولا تبذر تبذيرا • ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان

الشيطان لربه كفورا ... » •

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما

محسورا » •

٥ — وفي جانب السلوك بشأن الاولاد في قوله :

« ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان

خطا كبيرا » •

٦ — وفي جانب حرمة العرض في قوله :

« ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » •

=

... ومن هنا اذا تعثر الانسان في طريقه الى الانسانية ، وانحرف عن مستواها ، فانه لا شك يكون قد قصر في سعيه : اما عن طريق عقله او عن طريق قلبه ، فاعلق منفذ سمعه أو بصره ولم يعتبر بما سمع من احداث التاريخ ، أو يرى من الشواهد المادية في الحياة الانسانية أو يحجب قلبه عن أن ينفذ اليه الايمان بالله متأثرا بمنع الحياة وفتنتها فينصرف اليها كلية ، ولا يستطيع حينئذ أن يعرف حدود نفسه فيزل وينحرف :

« وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزون » (١) .

... فيحمل القرآن هنا أولئك الذين أساءوا استخدام ادراكهم الانساني ، وأفئدتهم ، مغبة اساعتهم اياها ، وقد أساءوا استخدامها ، إذ جحدوا بآيات الله واستهزأوا بها ، فلحتهم نتيجة ذلك من الدمار والخراب ما اطلع بهم وأفناهم .
كما يقول في آية أخرى :

« أفرأيت من اتخذ الله هوامه واغله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون » (٢) .

٧ — وفي جانب حرمة النفس في قوله :

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل ، انه كان منصورا » .

٨ — وفي جانب حرمة مال اليتيم في قوله :

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » .

٩ — وفي جانب حرمة العهد والمعاملة في قوله :

« ... وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا » . (الاسراء : ٢٣ — ٣٥) .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

(١) الأحقاف : ٢٦ .

... معللا أن السبب في اتباع بعض الناس غرائزهم ، وشهواتهم ،
وأهواءهم ، وفي اتباعهم ما يسمى بـ « النفس الأمارة بالسوء » على نحو ما
يذكر القرآن : « وما أبرئ نفسي ، ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربي ،
ان ربي غفور رحيم » (١) ... بحيث يصبحون في تبعيتهم لها عبادا لها وتصبح
هي في نظرهم آلهة ، وبذلك يضلون في تفكيرهم ، وفي اعتقادهم ، وفي
مشاعرهم — معللا أن السبب يعود الى اساءة استخدامها ، وعدم الانتفاع
بها كما ينبغي ، كخاصة للانسان في انسانيته ، تميزه عن الحيوان المشارك
له في تلك الغرائز وحدها .

وعبر هنا عن اساءة استخدامها بما يفيد الاستمرار في تلك الاساءة ،
وعدم السماح بفترة يعدل فيها الى النهج السليم بشأنها .

فالختم على السمع والقلب ، وجعل الغشاوة على البصر يؤذنان باحكام
الحيولة دون سماع الحق ورؤية الهدى ، والايمان بالله مصدر الحق
والهدى معا .

ومن أجل ذلك تنفى الآية على وجه التأكيد — في صورة استنفهام
انكارى — أن تكون ذاته ، أى الانسان ، على هذا النحو مصدر هداية
له . لأنه يكاد يكون قد نحى انسانيته تماما عنها . وليس له بعد ذلك
سوى الله جل شأنه . فهو وحده الذى يستطيع أن يغير أمره .

أما من حيث منزلة « القلب » بالنسبة لوسيلة « الادراك » وأهميته في
حياة الانسان ... فيذكر القرآن الكريم في قول الله تعالى :

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها
وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون
بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى
فى الصدور » (٢)

... اذ الآية الأولى من الآيتين هنا تشير الى أن تغيير المجتمع ،
واستبدال مجتمع جديد بمجتمع سابق عليه ، يتم عندما ترتكب قيادة المجتمع

(١) يوسف : ٥٣ . (٢) الحج : ٤٥ ، ٤٦ .

السابق انحرافا في الاعتقاد والسلوك . وبذلك تظلم هذه القيادة المجتمع كله ، كما تظلم نفسها ، غتستحق الزوال والتغيير .

على أن زوالها وتغييرها لا يصيب الحضارة المادية للمجتمع بأضرار من جراء الانحراف ، كما يصيب الأشخاص أنفسهم . فالحضارة المادية باقية عنوانا ودليلا في الوقت نفسه على ما كان ، ثم صار اليه الأمر في المجتمع . أما الأشخاص فلا بد أن ينحوا تمهيدا لازالة الفساد والانحراف . بسبب أو بآخر .

... والآية الثانية هنا في الآيتين أيضا تعيب على الآخرين الذين انحرفوا في ايمانهم . كذلك فكذبوا بما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يعتبروا بأحداث التاريخ ولم يعرفوا منها : أن الانحراف والفساد والظلم لا تخلف ثلاثتها الا القضاء حتما على المنحرفين والمنسدين والظالمين أنفسهم . فتلك قضية أولية ، ومبدأ اجتماعي يحكم بقايا المجتمعات الانسانية وزوالها :

فآلية اذ تتدد بعدم اعتبارهم بالتاريخ وحركته ترجع عدم اعتبارهم هذا الى حجب قلوبهم وعدم تركها مفتوحة حرة للايمان بالله وحجبا : اما بحرصهم على خرافات يعتقدون فيها فلا مكان بها لايمان جديد ، واما باتباعهم هواهم فلا يستطيعون صده وعندئذ يسد عليهم جميع مشاعر النفس فلا ينفذ الى القلوب ايمان أي ايمان .

ولما كانت القضية هنا قضية الايمان والانحراف فيه أو عنه ، وضعت هذه الآية الثانية هنا الأهمية على القلوب أولا . وذكرت من أجل ذلك أن الهداية هنا مردها الى القلب النير وأن الضلال والكفر هنا أيضا مرده الى القلب الأعمى . « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

والمسألة اذن ليست مسألة هداية بصرية ، وانما هي هداية قلبية .

ولأجل أن أمر الهداية والكفر — وهو السياق الذي نزلت فيه الآيتان السابقتان — يتعلق بالقلب أعطيت للقلب في الآية الأولى خاصية الادراك الانساني وهو التعقل « ... فتكون لهم قلوب يعقلون بها » على اعتبار

أن التعقل أو الإدراك من شأنه أن يوصل إلى التوجيه السليم . وكأن الآية اكتفت بالقلب عن العقل هنا لأهمية القلب . وكأن القلب لهذه الأهمية في مجال الإيمان والكفر يباشر خصيصته من الإيمان ، كما يباشر خصيصه العقل من الإدراك معا .

أما ذكر السمع في قوله : « **أو آذان يسمعون بها** » ... فغالما أن الأمر يرتبط بالتاريخ وأحداثه فمن الامعان في التدبير بعدم الاعتبار بها أن ينشأ عن الذين لم يعتبروا بها : أن تكون لهم آذان يسمعون بها ما ترويه حقائق الماضي وأحداثه .

... وليس وصف القلوب في الآية الأولى هنا بأن بها التعقل « **فنعقلون** » لهم **قلوب يعقلون بها** » .. دليلا على أن المراد « بالقلب » فيما يجيء ذكره في القرآن الكريم هو « العقل » . واذن تتحدى نظرة الاسلام الى ما يتميز به الانسان عن الحيوان مع النظرة السابقة عليه ، وهى نظرة الاغريق مثلا في الفكر الأوروبى . لأن العقل الذى هو الإدراك ، لا يدخل الإيمان في نطاقه . على معنى أن إيمان الانسان يستقر وراء الإدراك ، وغالبا ما يكون عاملا من عوامل الترجيح والحكم الذى هو وظيفة الإدراك واذن ليس هو ، وإنما غيره .

وإذا كان هناك في عرف علماء النفس في الانسان دائرة « لا شعورية » وراء الإدراك ، ودائرة أخرى شعورية وهى الإدراك نفسه فإن موضوع الإيمان اذا مر بالدائرة الشعورية أول الأمر فإن تصرفه بعد ذلك يكون منبثقا من الدائرة الثانية .

وميزتها : أن ما استقر فيها يدفع الانسان ويحركه في اتجاه الموضوع الذى استقر ، دون حاجة جديدة الى التفكير والترجيح والحكم في هذا الموضوع . ومن هنا كان دفع الإيمان دفعا مستمرا .

وبنظرة الاسلام الى الانسان ، وبالتحديد ميزته عن الحيوان المشارك له في الحركة والغرائز .

● بالادراك أولا ،

● ثم بالفؤاد مع ذلك .

... أعطى الاسلام صمام امان قوى لعقل الانسان فى أن يكون — كما اريد له فى خلقه — قوة فى توجيه الانسان ، يرتفع فيه فوق سيطرة الشهوة وتحكم الغرائز .

وعندئذ يمكن للانسان أن يستنير بقوة ادراكه بعقله ، ويهتدى بها فى حل مشاكل الحياة ، دون مخاوف الانحراف أو الانحدار الى مستوى أدنى من مستوى الانسانية فى السلوك والتصرف ، وبذلك يحقق الانسان انسانيته فى ذاته وفى مجتمعه .

فلنت الاسلام النظر الى « القلب » فى الانسان كمقر للإيمان بالله ، ثم تأكيده أهميته لصالح العقل فى مشادته مع الغرائز ، وفى محاولة كل منهما السيطرة على توجيه الذات ... يشكل النقطة الفاصلة فى بناء المجتمع الإنسانى :

تلك — أى النظرة الأوروبية — نظرة تثق تمام الثقة فى قدرة العقل الإنسانى ، مع ضعفه فى بعض مراحله الأولى ، على قيادة الغرائز الإنسانية والتحكم فى توجيهها ، مع ما لها من قوة الاعداد فى مباشرة وظائفها ، منذ ولادة الانسان .

وهذه أى النظرة الاسلامية — نظرة مع احتفاظها للعقل بوظيفته ، وهى توجيه الذات وهدايتها فى حل الصعوبات التى تواجهها ، تريد له أن تمر مراحله الأولى ، وهى مراحل نشأته وتطوره ، دون أن تشتد فيها الغرائز بحيث تنزع منه زمام القيادة فى التوجيه .

... هذه النظرة الاسلامية لا تلغى وظيفة العقل ، اذا هى لفتت النظر الى « القلب » والإيمان ، وأكدت دورهما فى حياة الانسان .

وانما هى تساعد العقل فقط على أن يكون نموّه وتطوره خاليا من العتبات التى تجمده ، أو تقوده لتبعية الغرائز : مصادر الشهوات الإنسانية وبهذه المساعدة تنسح أمامه الطريق السليم للنمو والتطور .

... هذه النظرة الاسلامية تريد للعقل الإنسانى أن يباشر وظيفته فى استقامة ، وفى غير ضغط عليه .

... تريد له « الحرية » لينمو ويعيش فيها ، ولتكون له صفة لازمة في عمله وتقديره ، طالما يعمل ويقدر .

ان الاسلام يثق بالعقل الانسانى ، كما يحتفظ له بدوره في حياة الإنسان ، ولكنه فحسب لا يبالغ في هذه الثقة بحيث يرى العقل وحده وهو في طفولته ، قادرا على كبح جماح الغرائز والشهوات .

والفرق بين النظرتين — أى الاسلامية والأوروبية — ليس في الثقة في العقل وفي عدمها فيه ، بل في الاعتدال والمبالغة فيها ... وليس في ابعاده عن وظيفته وهى النوجيه والهداية ، وانما في مدى تمكنه من هذه الوظيفة .

نظرة الاسلام تسعى الى هذا التمكين بحيث ، لا تعتريه فترات ضعف، أو ركود أو انحراف .

والنظرة الأخرى تتركه لظروف الذات والبيئة والمجتمع ، أى تتركه للصدفة والعوامل الأخرى الخارجية عن ذات الانسان .

... نظرة الاسلام ترغب في « حرية » العقل في مواجهة غرائز الانسان ... ترغب في أن يحقق : أنه مصدر « الارادة » في الانسان اذ بالارادة وحدها يمكن للانسان أن يتعدى الصعاب والعقبات في حياته . والقلب ، والايمان الذى يحل فيه ، هو السند الذى يستند اليه العقل أن ينشأ حرا متخلصا من نفوذ الشهوة ومصدرها وهو الغرائز ، وفي أن يحقق الانسان هدفه من أن يكون صاحب ارادة يتصرف بها في « اختيار ومشئنة » دون أن يقع تحت تأثير القوى الحيوانية فيه ، وهى قوى الغرائز .

ان الايمان بالله الذى يستقر في القلب سيلزم الانسان بنتائجه في التفكير والسلوك . بعد أن يعبد الطريق لحرية التفكير وحرية السلوك ، في ضغط الهوى والشهوة ، وتحكم الغرائز ، أو مما يسمى بالنفس الأمارة بالسوء .

وننتائج الايمان بالله تكاد جميعها تعود الى الصلابة في مواجهة اغراء المتع المادية في الحياة وزينتها ، وهى تلك التى تصورها الآية القرآنية .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة
من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة
الدنيا » (١) ... فجعلت مصدر الشهوات ثلاثة : المرأة ، والولد ، والمال .

والمفهوم لاغراء المتع المادية هو الوقوع تحت تأثيرها والتبعية لها .
أو بعبارة أخرى : اخضاع التفكير ، والاعتقاد أو السلوك لها .
أما الاستمتاع بها دون التبعية لها فذلك أمر طبيعي ، لا يفوت على
الانسان حريته في التفكير أو الاعتقاد أو السلوك :

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي
الذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم
يعلمون » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تهرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ،
إن الله لا يحب المعتدين » (٣) .

وهنا يفرق الإسلام اذن بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا في الحدود
التي لا تجعل العقل الانساني يخضع لسيطرة مصادر الشهوات من :
النساء والبنين ، والأموال في صورها المتنوعة ، وبين الاغراق فيها وعدم
الانفاقة من اغرائها ونفثها .

... وإذا قيل بعد ذلك : ان الاسلام دين يلائم الطبيعة البشرية
فذلك واضح : لأنه لا يوصى بالحرمان من متع الحياة ، ولا بالعزلة عنها ...
لا يوصى بالرهينة وأشباهها مما يجعل المادة في الحياة أمرا غير مقبول فيها .
بل يطلب الى المؤمنين في صراحة : عدم تحريمها ، ويجعل التحريم اعتداء
لا يرضى عنه الله . ففي تحريم الطيبات ومتع الحياة المادية خروج بالاسلام
عن أن يكون فطرة الله التي فطر الناس عليها .

... كما أنه اذا قيل : « روحية الاسلام » ضرورة حتمية لاستقامة
التفكير ، والاعتقاد ، والسلوك في محيط الانسان ومحيط المجتمع الانساني

(٢) الأعراف : ٣٢ .

(١) آل عمران : ١٤ .

(٣) المائدة : ٨٧ .

غذلك واضح أيضا : لأنه عن طريق الأخذ بهذه « الروحية » تتوفر للعقل الإنسانى ظروف الصحة والسلامة ، وهى الظروف التى تجعله يمارس سيادته وحريته ، دون أن يحرم من متع بدنه ، ودون أن يلزم بتكاليف لا قبل له بها .

« وروحية » الاسلام التى تقوم على الايمان بالله أولا تتحقق للشرد المؤمن : بالعبادات التى فرضها الاسلام وجعلها أصولا لا مفر منها فى قيام هذه « الروحية » ، وهى عبادات :

الصلاة ،

والصوم ،

والزكاة ،

والحج ،

... وكل منها يسهم بقسط ، فى جانب من تدريب الذات ، بحيث اذا أدت جميعها أصبحت الذات فى الطريق الحر ، أو فى طريق الأمان الذى يسير فيه العقل الإنسانى نحو غايته ... أصبحت الذات حرة :

فالصلاة اذ يواجه فيها المؤمن ربه كل يوم خمس مرات يناشده فيها أن يحول بينه وبين الاغراء بمتع الحياة الدنيا : « ... اياك نهىد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المفضوب عليهم ولا الضالين » (١) ... اذا بالصوم تجربة عملية تتكرر فى سنى حياة الإنسان لا لمنع الاغراء بهذه المتع فحسب ، وانما لمنع المتع ذاتها والحيلولة دون الاستجابة لحاجة الذات اياها . وهى تجربة تخرج منها الذات بمعنى التقوى والقدرة على تجاوز الحاجة الى هذه المتع فى الوقت المحدد ، أو فى الوقت الذى تضطر فيه الذات الى التغاضى عن هذه الحاجة وجعلها عديمة الدلالة والأثر ، اذا تعارضت تلبيةها مع تحقيق أهداف إنسانية أهم وأبعد عمقا فى حياة الإنسان .

وأداء الزكاة ينبىء عن خطوة أهم فى تحقيق معنى القدرة الذاتية على تجاوز حاجة الذات الى متع الحياة . فهى استفتاء عن رضاء ،

(١) الفتاحة : ٥ - ٧ .

وتنازل عن مال مقتنى ، قربة الى الله وتوجها به الى نيل القبول عنده .

واذا كان أداء الزكاة ينبىء عن أداء هذه الخطوة من جانب المزيكين فان مال الزكاة نفسه هو الضمان لتحقيق التضامن فى المجتمع الإسلامى . وسد ثغرات الحقْد ، التى قد توسع هونها عزل صاحب الحاجة بسبب العجز عن أن يشعر بالتعاون والأخوة . اذا ما سيطرت الأنانية فى تصرفات الأثرياء فمسكوا أيديهم عن إخوانهم فى المجتمع من أصحاب الحاجة .

والزكاة فى مصارفها ليست فحسب لغير القادرين على سد حاجتهم فى الحياة . وإنما أيضا لأولئك الذين تحملهم جوائح الزمن على فقْد مالهم ، أو تدفعهم أحداث المجتمع الى التضحية بهذا المال فى سبيل بقائه أو فى سبيل تماسكه ، بدفع الفتن أو برد العدو عن أن ينال منه .

والحج ليس الا توجها جماعيا للمسلمين فى كل مكان الى الله جلّت قدرته يربطهم هدف واحد ، وهو أن يظلوا مسلمين على إيمانهم بالله ، وعلى قوتهم فى أخوتهم ، وعلى تساويهم فى القيمة البشرية ، لا يفرق بين واحد وآخر مظهر ماذى من مظاهر التفرقة والاختلاف ، فى أعراض هذه الحياة .

والمؤمنون فى حجهم يعبدون الله ، ويتقربون بالحج إليه ، كما يتقربون إليه بعبادات : الصلاة ، والصوم ، والزكاة .

وهم اذن فى هذا الحج يناشدونه العون على تحقيق هدفهم فى الترابط ، والمتماسك ، والأخاء ، بعد أن صفت نفوسهم وأمكن لذواتهم أن تكون على قوة وإرادة — بفضل عبادتى الصوم والزكاة — تحول دون أن تقع تحت اغراء متع الحياة الدنيا .

واذا كانت لذواتهم هذه القوة النفسية فى الحيلولة دون التأثير بالاغراء المادى ، فذاك دليل على نمو المعنى الجماعى بينهم . وعندئذ يكون الالتقاء فى الحج على هدف الترابط والتماسك والبقاء على التساوى فى الاعتبار البشرى بين المؤمنين كافة ، التقاء مثمرا ، لا رياء فيه .

... وهكذا نجد أن العبادات فى الإسلام التى قامت على الإيمان

بأنه تتجه جميعها الى تحقيق المساواة في الاعتبار البشري ، كما يتجه
الايمان بالله نفسه الى توفير « الحرية » للعقل البشري ليعمل وهو فوق
التأثر باغراء الشهوات .

ويمكن الآن أن يقال : أن الايمان بالله مصدر الحرية الفردية ،
والعبادات في الاسلام التي تنميه ... تحول حتما دون نشأة الروح
الطبقية في المجتمع الاسلامي ، لأن هذه العبادات تستهدف في الدرجة
الأولى اضعاف الأثنية من جانب ، وقوة المعنى الجماعي في الذات على
أساس من المساواة في الاعتبار البشري ، لا فرق بين انسان وآخر مهما
اضيفت له من عوارض الحياة وزينة الحياة الدنيا من جانب آخر .

● والحرية الفردية التي حرص الاسلام هنا عن طريق الايمان ،
والعبادات ، على توغرها في نشاط العقل الانساني وعمله ... حرص
أيضا على أن تتوفر في مجال التصرفات والسلوك العملي ، الذي يأتي به
الانسان ، بعد أن وفرها لمن يدخل في الايمان بالله وبرسالته .

فقد وفرها من قبل لمن يدخل في الايمان ، بتحديد مهمة الرسول
صلى الله عليه وسلم بأنه أولا : ليس ملزما بهداية الناس حتى يكرههم
على الايمان « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء » (١) .

ثم ثانيا بأن طلب منه أن يسلك في دعوته مسلك الحكمة والموعظة
الحسنة .

وإذا دخل في الجدل مع آخرين فيجب أن يكون الطريق الى ذلك هو
طريق الانسان المهذب :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي
أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » (٢) .

... كما أعلن هذه الحقيقة الواضحة : « لا اكراه في الدين ، قد
تبين الرشيد من الضي » (٣) ... لتكون شعار الدعوة ، كما هي المبدأ في
قبول الايمان برسالة الاسلام .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(١) البقرة : ٢٧٢ .

(٣) البقرة : ٢٥٦ .

وحرص الاسلام على توفير الحرية في مجال التصرف والسلوك العملى يتجلى في مجال المال ابتداء من الزكاة الواجبة الأداء الى الانفاق بعدها في أوجه النفع العامة ، فيحبب الى الانسان التنازل في المال عما زاد عن حاجته .

فالزكاة الواجبة الأداء جعلها عبادة ليتقرب بها المزكى الى الله . والعبادة ، وهى قربى الى الله ، لا تنطوى اطلاقا على اكراه ، أو بغض ، أو عدم رغبة في الأداء .

أما ما وراء الزكاة من انفاق للمال فقد سلك القرآن الكريم كل الصروب التى تجعل الانفاق أمرا يتنافس فيه الأثرياء ، أكثر مما يتنافسون في جمع المال واقتنائه فيقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم » (١) .

ويقول كذلك : « ... وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ، وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » (٢) .

... ويجعل القبول عند الله لهذا التنازل مشروطا بأمرين :

أولا : أن يكون الانفاق من طيبات المال لدى صاحبه :

« لن نألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم » (٣) .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذه الا أن تفضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » (٤) .

وثانيا : أن يكون الانفاق نتيجة حب له ورغبة فيه ، وليست فيه شائبة حرج أو ضيق صدر ، فضلا عن اكراه فيه « ... وآتى المال على

(٢) البقرة : ٢٧٢ .

(٤) البقرة : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١) الحديد : ١١ .

(٣) آل عمران : ٩٢ .

**حبه — حب الايتان — قوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفي الرقاب ...» (١) ***

... وذلك كله مما يهيء جو « الحرية الفردية » للنزاعل عن المال ،
الذى يعتبر جمعه واقتناؤه لدى الطبائع البشرية ، لو تركت وشأنها ،
من أهم أهدافها فى سبيل تحقيقها :

« ألهاكم التكاثر • حتى زرتم المقابر » (٢) . غشأن الطبيعة الانسانية
التي لا تنفعل مع الايمان بالله أن ترغب فى جمع المال والتكاثر فيه فى جميع
لحظات الحياة .

واذا كان الاسلام عمل فى مجال المال على أن تتوفر لانفاقه ظروف
الحرية الفردية ... فما عدا هذا المجال يكون حرص الاسلام بالأولى فى
أن تتوفر فيه هذه الظروف ، ويكون من السهل كذلك أن تتوفر فيه .

● والحرية الفردية ، أو المشيئة ، أو الاختيار التي يوغرها الاسلام
للمؤمن من طريق الايمان بالله — كما رأينا — كما أنها الضمان لأن يلتزم
الانسان بروح المساواة فى الاعتبار البشرى بين الناس جميعا ونبذ روح
الطبقية فى المجتمع ... هى فى واقع الامر الظاهرة التي تفرق بين
الفلسفة الأوروبية فى شأن المجتمع ، وبين الاسلام فيما يحدد مقومات
المجتمع الانساتى .

ان سيادة « الروح الطبقية » فى أى مجتمع هو عنوان على ضعف
الحرية الفردية أو على تلاشيها فى أفرادها .

ما معنى أن تكون هناك طبقات فى المجتمع ؟

معنى أن تكون فى أى مجتمع طبقات هو أن تكون هناك حواجز
نفسية على الأتال تنصل بين مجموعة كطبقة ومجموعة أخرى كطبقة أخرى ،
والحواجز النفسية تعود الى « النظرة » التي تنظر بها كل مجموعة الى
الأخرى .

تلك تنظر الى مجموعة على أنها أدنى منها ، وهذه تنظر الى تلك
على أنها أرفع منها . وربما يرجع اختلاف النظرتين الى فرق فى الثراء ،

(٢) التكاثر : ١ ، ٢ .

(١) البقرة : ١٧٧ .

أو في الجاه ، أو في التقاليد الموروثة ، أو في القوة والضعف ، أو في الاستغناء والحاجة لأى من المجموعتين .. وهلم جرا ... من الأمور التى هى وراء خصائص الطبيعة البشرية ، وتعد من عوارضها ، وليس من مقوماتها .

والفرد الذى يأخذ في نظريته وتقديره بهذه العوارض لم يتخلص بعد من اغرائها وفنتها ، أو هو واقع تحت هذا الاغراء ومأخوذ ببريق ما لها من فتنة . وذلك شأن الفرد غير « الحر » الذى لم يتحرر من تحكم شهواته ، يفضل ما له من ايمان بالله يقف به في مواجهتها ومتحديا اياها .

ان الفكر الأوروبى الغربى يمجّد — عادة — الحرية الفردية . ولكنه لا يرى هذه الحرية في التخلص من تحكم الشهوات وسيطرة الغرائز . بل على العكس يراها في الانطلاق لتبرير :

شهوة اللسان ،

وشهوة البطن ،

وشهوة الفرج والاسترسال فيها .

والفكر الماركسى اللينينى — أو الفكر المادى التاريخى — يضمن الحرية الاجتماعية حرية الأفراد . فمضى الحرية الفردية غير مستقلة . وغير جذيرة بالاستقلال . بل ينظر اليها في نطاق تحرر المجتمع مما يسميه استغلال رأس المال عن طريق إلغاء الملكية الفردية .

وظالما ينظر الفكر الماركسى اللينينى الى الحرية الفردية على أنها غير مستقلة ، فليس مطلوبا من الأفراد أن يسعوا بذواتهم الى التخلص من تحكم غرائزهم وشهواتهم .

ثم اذا كانت لهم غرائز وشهوات فلا يرون في الحياة الدنيا ، بحكم إلغاء الملكية الخاصة ، مالا حتى تكون له زينة واغراء ، ولا يرون كذلك اولاد لانهم ليسوا لهم بل للدولة ، وليسوا هم مسئولين عنهم مسئولية شخصية ، وبذلك لا يكون الاولاد مصدر فتنة وزينة لهم . اما النساء فقد خلق مبدا المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في التفكير الماركسى جوا

يحول دون أن تكون المرأة زينة في حياة الرجل' يؤثرها ويتعلق بها ، كما يتعلق الحريص على موجود يعزه ويقاتل في سبيله .

والذى يعدم شخصيته واستقلاله الفردى لا يكون موضوع حديث كانسان . ولذا يتحدث عنه الفكر الماركسى كجزء في كل ، أو كترس في عجلة . فهو يعد لحركة ، ولا يتحرك بذاته ، فضلا عن ان يكون مختارا أو مكرها في تحركه .

ثم اذا حرم الفرد في نظام الحكم الماركسى اللينينى من مصادر الزينة والمتع في الحياة الدنيا وهى : المال ، والولد ، والمرأة — وعندئذ ليس في حاجة الى جهد لتخليص ذاته من اغرائها وفتنتها — فانه لا شك يتطلع اليها ، مهما كان الكبت ، وكانت درجة الحرمان . وهو الآن مكره على قبول الحرمان . فلا يقال : انه تحرر من الضغط ، ويستطيع ان يكون الآن حرا في تفكيره ، واعتقاده ، وسلوكه .

وطالما الفرد في نظام الحكم الماركسى اللينينى مكره على الحرمان ، فهو غير مختار وغير ذى مشيئة . وهو الآن مساوق للفرد في نظام التفكير الغربى في فقد الحرية الفردية . الا ان الفرد الماركسى مكره من قبل نظام الحكم في المجتمع ففقد حريته الفردية . اما الفرد الآخر في النظام الغربى فقد اطلق لنفسه عنان الشهوات ففقد حريته الفردية بسيطرة الغرائز على عقله .

كل منهما — الفرد في النظام الماركسى والآخر في النظام الرأسمالى — ليست له ارادة يرتفع بها فوق مجال الضغط والاكراه .

كل منهما يكاد يفقد انسانيته ، لانه يفقد حريته الفردية بسبب او بآخر :

كل منهما تابع وخاضع : هذا الماركسى اللينينى تابع لقهر نظام الحكم الذى يعيش فيه ، وذاك الغربى تابع للشيطان نفسه ، وهو ما تصوره المعدة والفرج .

كل منهما عبد ورقيق : هذا الماركسى اللينينى عبد ورقيق لغيره ، وذاك الغربى عبد ورقيق لشهوة نفسه الامارة بالسوء .

والمجتمع الذى تفقد افراده الحرية الفردية باكرهه او بضغط ، لابد
ان يكون مجتمعا طبقيا .

فالمجتمع الذى تتبع افراده شهوات النفس هم انانيون بحكم هذه التبعية
سعيهم فى الحياة بسبب انانيتهم ، ومن اجل تحقيق اهدافها . واهداف
الانانية لا تخرج عن نطاق الذات وما لها من شهوات ورغبات : لا تخرج
عن نطاق القوة للذات ، وجمع المال من اجل الذات ، وتحصيل الحياة لخدمة
الذات ، وتحصيل المتع لامتاع الذات ، وكثرة الأولاد فى سبيل عصبية الذات .

وعندئذ يكون هناك فى المجتمع :

اقوياء بقوة السلاح مثلا يحافظون على قوتهم ويعتزون بها ،
واثرياء يحافظون على ثرواتهم ويفخرون بها ،
واصحاب جاه يسعون لبقاء هذا الجاه لهم ويمجدونه فيهم ،
ومترغون يعيثون فى الارض فسادا ، توفيراً لترفهم وبياهون به ،
واصحاب عصبية فى الاسرة او فى القبيلة يتطاولون بعصبيتهم ويحافظون
على تفوقها فى الكثرة .

وبجانب هؤلاء يوجد فى المجتمع أيضا آخرون :

ليس لهم ما يملك هؤلاء من اسباب القوة والثراء ، والجاه ،
والترف ، والعصبية . فهم أدنى منهم فى كل ذلك .

وبمرور الاجيال على هذا التميز والتفرقة تظهر « الطبقة » وبدو
استعلاء طبقة على أخرى ، وخضوع طبقة لأخرى : استعلاء الطبقة القوية ،
أو الثرية ، أو صاحبة الجاه ، أو صاحبة العصبية ، أو التى تملك أسباب
الترف على الأخرى الضعيفة ، أو الفقيرة ، أو عديمة الجاه ، أو من لا
عصبية لها . وخضوع الطبقة الضعيفة للقوية ، والفقيرة لذات الثراء ،
وعديمة الجاه لصاحبته ، وتولية العصبية لصاحبة الكثرة فيها .

وإذا تحكم الاستعلاء بفعل الانانية فى مجموعة من الأفراد كطبقة ، وتحكم
الخضوع والتبعية فى مجموعة أخرى بحكم العجز وعدم القدرة على بلوغ ما
بلغته المجموعة المستعلية . فان روح الطبقة تتحول الى عامل أصيل

في قيام المجتمع ، وفي تغييره على السواء مهما طال الزمن ، ومهما كانت الطبقة التي تسعى الى التغيير .

وطالما الأتانية باقية غروح الطبقة كذلك ، كظاهرة اجتماعية لها .

والمجتمع الآخر الماركسي اللينيني الذي يخضع أفراده لغيرهم فهذا الخضوع للغير ظاهرة من ظواهر الطبقة فيه ، فالجموعة التي تخضع غيرها تتميز حتما عن تلك التي تخضع لها وتكره على التبعية لتوجيهها :

الأولى تتميز بالاستعلاء ، مهما ادعت أو نادى بنداء الرفاق والأصدقاء . . . تتميز بالاستعلاء ، لأنها صاحبة الأمر والكلمة والتفرد بالسلطة : وهي طبقة الحزب . . وهو الحزب الشيوعي أو العصبة الشيوعية في الاتحاد الاشتراكي لقوى الشعب كما في نظام يوغسلافيا — وهو الحزب الوحيد الذي يسمح به في نظام الحكم الماركسي اللينيني .

... بينما تتميز المجموعات الأخرى ، وهي مجموعات الجيش والعمال ، والبرجوازيين على اختلاف في درجاتهم ومنازلهم بالطاعة وعدم النقد والمعارضة . . . طاعة المكره ، وليست طاعة المؤمن ، وعدم نقد الخائف ، وليس عدم نقد المقتنع ، وعدم معارضة الأجير الذي يحافظ على لقمة العيش : الخبز ، وليس عدم معارضة صاحب المصلحة القومية .

ونظام الحكم الماركسي اللينيني من أجل ذلك يتميز بظواهر :

أولها : احتكار الحزب الواحد للسلطة . ويحرص هذا النظام أشد الحرص على أن تكون جميع مقاليد الرقابة والسلطة بيد أعضائه . ولا يسمح إطلاقاً بأن يكون هناك تعدد لأحزاب سياسية ، كما لا يسمح بنقل هذه السلطة لغير أعضائه من بقية أفراد المجتمع مهما كان شأنهم . إذا تعدد الأحزاب سيتيح الفرصة للمنافسة على الحكم من جانب ، ولإظهار نقائص الحزب الآخر في سياسته من جانب آخر . وبذلك تذهب « قداسة » الحزب ومكانته في المجتمع ، وبالتالي ينقد صلاحيته كطبقة خاصة في الاستعلاء وفي الطاعة له .

كذلك إذا لم تكن السلطة احتكاراً لأعضاء الحزب وباشرها نفر من غيرهم تكون النتيجة نفس الشيء بالنسبة للحزب وقديسيته .

والمذكرة (١) التاريخية التي أرسلها زعماء الأحزاب الشيوعية الخمسة في أوروبا الشرقية وهي : الاتحاد السوفييتي ، وبلغاريا ، وبولندا ، والمجر ، والمانيا الشرقية ، بعد تداولهم في عاصمة بولندا في شهر يوليو سنة ١٩٦٨ الى رئيس دولة تشيكوسلوفاكيا تطلب فيها حضور المسؤولين الشيوعيين في براج - وفي مقدمتهم (Dubeik) السكرتير العام للحزب - الى « وارسو » العاصمة البولندية لمسألتهم عما يسمى بـ « ضياع سلطة الحزب » في الاصلاحات التي وافق عليها الحزب الشيوعي التشيكي وأثارت ضجيج هذه الأحزاب ، اذ اعتبروها ثورة مضادة للاشتراكية . . تنبئ عن مدى حرص النظام الماركسي اللينيني على « ديكتاتورية » الحزب وتفرده بالسلطة وحده ، ابقاء على « مصلحة الحزب » في السيادة ، والتمتع بمنزلة الطبقة الحاكمة المقدسة .

وحرص النظام الماركسي اللينيني على الملكية العامة - والغاء الملكية الفردية - وانما هو للتحكم في أفواه الأفراد في المجتمع ، وفي اكراههم على قبول الحرمان ، وقيود العمل اى عمل . . . ولا يقل اطلاقا حرصه على ديكتاتورية الحزب في السلطة ، وفرض الرقابة على النشر وأجهزة الاعلام .

. . . وهكذا تحولت الثورة البلشفية في أكتوبر سنة ١٩١٧ التي قامت مدعية أنها لصالح العمال ضد الطبقة الارستقراطية من أسرة القيصر وأصحاب رؤوس الأموال والامتطاع ، وضد الطبقة الأخرى البرجوازية من الارايين والمتقدمين تحت شعار : صراع الطبقات لخلق مجتمع « عديم الطبقات » . . . تحولت الى مجتمع طبقي ينصل فيه بين الطبقة والأخرى .

« الاكراه » من جانب ، والخضوع من جانب آخر .

« والقدسية » من جانب وانتهاك الحرمات من جانب آخر .

« وديكتاتورية » الراى والسلطة من جانب وعدم السماح بالراى وعدم المشاركة في السلطة من جانب آخر .

(١) مقتبس من المجلة الألمانية (der Spiegel) عدد ٢٩ ص ٤٧ في ١٥

يوليو سنة ١٩٦٨ ، ١٥

ان مجتمع الثورة الماركسية يكاد يمثل مجتمع العبيد في القرن العشرين الذى استحل فيه الرق الجماعى لفريق من الاسياد يدفع الثمن البخس ولكن فى شكل اجور ، دون أن تكون لهذا الفريق ميزة فى استقلاله بالسيادة سوى : الارهاب الذى تقوم به تشكيلات مختلفة لحماية ما يسمى « الثورة » وفى مقدمتها : الجيش والحرس ، ومنظمة الشباب .

وإذا كان للأفراد الارتقاء فى نظام الرق القديم أمل فى التحرر عن طريق « العتق » أو « المكاتبه » ... فهذا النظام الماركسى فى الاسترقاق لا يترك بصيصا من أمل فى الخلاص من رقه وعبوديته ومن اكراهه وارهابه .

ان القرن العشرين يشهد وضع « الحرية الفردية » — كما رايناها إما فى الانطلاق نحو شهوة البطن والفرج ، أو فى الكبت والحرمان — فى المجتمع الأوروبى ، فى الشرق ، وفى الغرب ، كما لم يزل يشهد « روح الطبقة » فى تكوين هذا المجتمع ، وفى قيامه ، وفى تغيره ، رغم الفلسفة الماركسية التى بشرت بالمجتمع « عديم الطبقات » ، ورغم الثورة البلشفية التى قامت ، تأسست نظاما للحكم انقضى عليه خمسون عاما على أساس من هذه الفلسفة .

... ان القرن العشرين يشهد فى أوروبا « انطلاق » الأفراد فى سلوكهم فى المجتمع ، كما يشهد « اكراههم » وارهابهم ، وحرمانهم فى مجتمع آخر . ومع ذلك يشهد ثورة تكنولوجية لم يشهدها التاريخ البشرى فى يوم من الأيام التى مضت .

وهذه الثورة التكنولوجية هى وليدة الحرب العالمية الثانية ، كما هى وليدة الخوف والقلق فى المجتمع الغربى والشرقى على السواء ، بعد انتهاء تلك الحرب والفوز فيها لمن يعرفون اليوم بالمعسكر الغربى والمعسكر الشرقى ، وقد كانوا حلفاء فيها .

ان حرص الحلفاء — وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية — على التدمير فى الحرب الالية الثانية دفعهم الى الانفاق كثيرا على البحوث العلمية وتطبيق نتائجه فى مجال الصناعة خدمة للأغراض الحربية ، ومساعدة على الخرو ... تلك الحرب بنصر قوى وعاجل .

وقد حققت النفقات الكثيرة على البحوث العلمية وتطبيق نتائجها فى

مجال الصناعة للأغراض الحربية تقدما كبيرا في التكنولوجيا شجع على الاستمرار في هذا التقدم بعد الحرب :

العون الكبير من قبل الشركات الصناعية في الغرب كله ، ومساعدة الحكومات لبرامج هذا التقدم للأغراض السلمية .

ثم ما ان انتصر الحلفاء على دول « المحور » في تلك الحرب العالمية الثانية حتى انقسموا الى معسكرين متقابلين : معسكر الشرق بزعامة الاتحاد السوفييتي ، ومعسكر الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، وابتدأت المنافسة على زعامة العالم في مجال السياسة والاقتصاد بين هاتين الكتلتين ، كما ابتداء الصراع الطبقي الماركسي يظهر بينهما كذلك : احداهما كممثلة للحركة العمالية العالمية ، والأخرى كممثلة للرأسمالية الصناعية .

وبسبب هذا الصراع الطبقي ، وكذلك بسبب التنافس على الزعامة العالمية السياسية والاقتصادية اشتد الاقبال داخل المعسكرين على استخدام العلماء ، والانفاق عليهم والانفاق في سخاء منتطع النظر على البحوث العلمية والمجالات الصناعية لتطبيق نتائجها ، أملا في كسب الزعامة العالمية ، وكذلك أملا في اخضاع المعسكر المقابل .

ثم بسبب تقدم البحث النووي وتفجير الذرة ، وصنع القنبلة الذرية ، ثم الهيدروجينية انقطع الأمل في تحطيم أى من المعسكرين للآخر ، وظل كسب الزعامة العالمية مع وضع الحرب « الباردة » موضع الحرب الساخنة في استمرار الصراع الطبقي بين الكتلتين ... هدفا للتنافس بينهما .

ولكن وجود الكشف النووي ، وصنع القنابل الذرية والهيدروجينية أثار القلق والخوف بل والرعب ، داخل المعسكرين .

وبسبب هذا الخوف والرعب نشطت الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نشط الاتحاد السوفييتي في الاقبال على جأ ، العلماء من كل بلد والانفاق الباهظ على وسائل الحماية — وهي متعددة — من الخطر النووي .

وما زال الانفاق يستنزف الكثير من ميزانيات الدولتين في سبيل الحماية من الأخطار النووية . وكلما حددت وسيلة للوقاية منها اكتشفت وسيلة أخرى للتضاء على صلاحيتها .

... وهكذا : حلقة مفرغة من البحوث العلمية ، ومن وسائل التقدم التكنولوجي ، ومن المختبرات ومراكز التجارب .

وانتقل البحث العلمي من الأرض الى الفضاء ، وانتقل التقدم التكنولوجي من الصواريخ المختلفة الأبعاد والعابرة للقارات الى مضاد لتلك الصواريخ ، ثم انتقل كلية من مجال الصواريخ والفضاء الى الأتمار الصناعية ، وسفن الاستخبارات ، والعقول الآلية ، والطائرات الآلية الرقابة ، والغواصات النووية ، والقواعد الحربية في قاع المحيطات ...

والعلماء الذين يعملون في حقول البحث العلمي المختلفة وفي مجال الهندسة التطبيقية سواء في المجتمع الرأسمالي أو الآخر الماركسي اللينيني في الاتحاد السوفييتي ... انما يعملون تحت إغراء المال وفنتته . فمرتبات ولو أنه كانت لهم حرية فردية في البحث والكشف والانتاج لما يدخل في مجال الخيال .

وهناك يمكن أن يقال : ان هؤلاء العلماء في بحوثهم وفي انتاجهم لم يتخلصوا من إغراء المال وفنتته . ولذا فهم لا يتمتعون بالحرية الفردية في كلا المعسكرين .

ولو أنه كانت لهم حرية فردية في البحث والكشف والانتاج لما اقدموا على تسخير العلم والهندسة التطبيقية فيما يدمر البشرية تدميرا كاملا ، ولآثروا أن يخدموا بعلمهم وانتاجهم خير البشرية ، ويطلبون ممن يؤجرونهم على البحوث والانتاج أن يوجهوا بعضا من تلك النفقات الباهظة المستمرة والمكثوفة منها ، والمتزايدة ، للشعوب الفقيرة في تطويرها صحيا ، واجتماعيا وعلميا ، وثقافيا .

ومن هنا يمكن من الأسف أن يقال : ان هذا التقدم العلمي والتكنولوجي في الشرق والغرب هو وليد :

- ١ — الخوف ، والقلق لدى الكتل المتنافسة على الزعامة العلمية .
- ٢ — وهو نتيجة الانفاق الباهظ ، وفي كثير من الأحيان على حساب مستوى المعيشة لدى بعض هذه الكتل .
- ٣ — وكذلك نتيجة أيضا لعدم توفر « الحرية الفردية » لدى العلماء

الباحثين . اذ أنهم يخضعون في بحوثهم لاغراء المال وفتنته . وعملهم العلمى لذلك يتسم باللااخلاقية .»

ولولا بريق هذا التقدم العلمى والتكنولوجيا فى القرن العشرين لانتكشف المجتمع الشرقى الماركسى ، وكذلك المجتمع الغربى الرأسمالى ، واتضح عيانا أن كلا من المجتمعين يفقد الفرد فيهما حريته الفردية : أحدهما بسبب الاغراق فى شهوات المال والنساء والاولاد ، والآخر بسبب الاكراه والارهاب .

ولكن هذا البريق اللامع لا يستر فحسب هذا النقص اللانسانى ، وانما مع ذلك يغرى المجتمعات الأخرى غير الأوروبية على التقليد والسير فى ركب التبعية لهذا المجتمع . او لذاك .

ومن الأسف كذلك أن هذا التقدم التكنولوجى جعل المقاييس اللااخلاقية هى السائدة فى قتل الأفراد ، او فى ترفيهم ، وفى افناء الشعوب والحضارات . ولكن لأنه تقدم مادى ملموس لم تعد تسمع للأخلاق وللروحانية كلمة . كما لم يعد رجال الأخلاق والروحانية يمثلون القيم الانسانية . وانما كادوا كذلك يخضعون كذلك هذه القيم الانسانية لللااخلاقية وللروحانية .
